الأهرام

المصدر : الحياه

التاريخ : ١٢ يونية ٢٠٠٠

أرسى استقرار سورية وحولها لاعباً بارزاً

الأسد شغله تحرير الجولان لكنه لم يصافح

□ دمشق - ابراهيم حميدي

■ رحل الرئيس حافظ الأسد من دون ان يرى الشرق الأوسط «صورته» الجديدة كما بشر بها الاميركيون وبعض الاسرائيليين، فكان الزعيم العربي الوحيد الذي عاصر الصراع العربي - الاسرائيلي، لكنه لم «يقر رسمياً» بوجود الدولة العبرية. ترك «أبو الهول» سورية من دون ان تصافح «الآخر». لم يصافح اسرائيليين ولم يسمح لمساعديه ان يفعلوا ذلك في حياته.

خاض مع الرئيس الراحل أنور السادات حرب تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٣، لكنه لم يذهب معه الى مفاوضات سلام. وقع السادات فيما فضل الأسد الانتظار... الى انهيار الكتلة الشرقية و«الحليف الاستراتيجي» وتقهقر العراق «البعثي» في بداية التسعينات.

اتسمت علاقته بالرئيس الفلسطيني ياسر عرفات والعاهل الأردني الراحل الملك الحسين بالمد والجزر. ووقع الأول اتفاق اوسلو في ١٩٩٣ والثاني اتفاق وادي عربة في العام ١٩٩٤، فعاد «أسد دمشق» الى لعبته المفضلة... الصبر.

كان يقول: «إذا لم نستطع الحصول على حقوقنا العادلة لنسلم الأمانة للجيل القادم» وهذا ما فعل: فاوض منذ مؤتمر مدريد في العام ١٩٩١ مع خمسة رؤساء وزراء اسرائيليين واجتمع الى أربعة رؤساء اميركيين وتعرض للضغط، لكنه لم يحد عن طلبه: «الانسحاب من الجولان الى ما وراء خطوط ٤ حزيران (يونيو) ١٩٦٧».

بدأ مفاوضات السلام بـ«صعوبة» مع الليكودي اسحق شامير، ثم فاوض جدياً مع العمالي اسحق رابين الذي وضع «وديعة» الانسحاب الكامل في «جيب» الرئيس بيل كلينتون، لكن اغتيال رابين نقل «ملف السلام» موقتاً الى شمعون بيريز ولثلاث سنوات الى الليكودي بنيامين نتانياهو الذي لم يجد بداً من التفاوض... مع «سورية الاسد».

استبشر الشرق الأوسط خيراً بخسارة نتانياهو اكثر من فوز العمالي ايهود باراك. فعاد الأمل الى «اغلاق ملف الصراع». وتبادل بالأسد مع باراك عبارات المدح بخطى ثقيلة، لكن مطالب اسرائيل اكثر من ان يستجيبها الرئيس السوري.

جوهرياً، لم تتغير مطالب الرئيس الراحل في شأن «كامل الأرض»: اجتمع مع الرئيس الاميركي ريتشارد نيكسون في العام ١٩٧٤ بالمطالب نفسها، وان كان التعبير عنها اكثر تفصيلاً في آخر لقاء جمعه مع الرئيس كلينتون في ٢٦ آذار (مارس) الماضي: «نستطيع الانتظار الدهر كله»، اذا لم يوافق باراك على «الانسحاب من شاطئ طبريا».

وبين هذين اللقاءين اجتمع الأسد مع الرئيسين جيمي كارتر وجورج بوش في العام ١٩٩٠ الذي وجد الأسد «جذاب الشخصية، لكن النقاش معه كان صعباً»، لتدخل سورية «التحالف الدولي» لإخراج العراق من الكويت. ثم اجتمع مع كلينتون في جنيف في بداية ١٩٩٤ ونهايته... وصولاً الى الاجتماع الأخير بينهما، ورفضه «السلام الدافئ» و«المصافحة» قبل ان تعود طبريا الى سورية.

أمضى الشرق الأوسط يوم امس من دون الأسد، الذي يجمع الخبراء على انه استطاع ان يحول سورية من «دولة صغيرة تتقاذفها الأقدار» الى «لاعب بارز في الساحة الاقليمية» أو تحويلها بالمعنى اللغوي من «مفعول به» الى «فاعل» في القياس الى مساحتها الجغرافية واقتصادها والظروف القاسية المحيطة بها نتيجة ذلك.

ويعود ذلك اساساً الى اطول استقرار تمر فيه سورية الحديثة بعدما عرفت بكثرة الانقلابات منذ استقلالها عن الانتداب الفرنسي في العام ١٩٤٦. اذ جرت فيها سبعة انقلابات قبل ان يصل الأسد الى الحكم بـ«الحركة التصحيحية» في ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٠.

واستطاع الأسد الاستمرار نتيجة قدراته المميزة كونه طياراً وما يحتاج ذلك من تركيز وقدرة ذهنية عاليين وضرورة الجمع بين رؤية التفاصيل الدقيقة والصورة الشاملة التي تبدو من الجو. وكان عليه بعد ثورة الثامن من آذار (مارس) ١٩٦٣ التي اوصلت حزب البعث الى الحكم بعد الانفصال عن الجمهورية المتحدة في ١٩٦١، تجاوز الجناح المتطرف في الحزب الذي حكم البلاد حتى الحركة التصحيحية.

وكان أحد الخلافات الاساسية مع هذا «الجناح» طريقة التعامل مع الكتلة الشرقية، اذ ان الاسد كان يريد ان تكون الخطوط مفتوحة على كل القوى الدولية. اي «تحالف» مع الاتحاد السوفياتي السابق و«حوار» مع الولايات المتحدة، بما يوفر لسورية السباحة بين التغيرات الدولية والاقليمية. وقال وزير الخارجية السوري فاروق الشرع: «كان يريد ان تكون النوافذ والخيارات مفتوحة لكل ما يعزز دور سورية».

وجنبت هذه العقلية البلاد الانهيار مرات عدة أبرزها العبور من نهاية الثمانينات الى التسعينات بسلام مع ان دولاً مشابهة لسورية انهارت لأنها «وضعت جل بيضها في السلة السوفياتية». وقال مسؤول سوري كبير لـ«الحياة»: «ان السنوات العشر الأخيرة كانت الاصعب في

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

تاريخ سورية الحديث، حيث سقط كثيرون في المشرق والمغرب. ويئس الكثيرون ولم تعد لهم نفحة من الصمود، لكن سورية صمدت ولم تتراجع عن مبادئها رغم الضغوط والتهديدات المباشرة وغير المباشرة» التي مورست عليها.

وقال مسؤول آخر ان الرئيس الراحل امتلك «رؤية شاملة ونظرة دقيقة للأوضاع الاقليمية والعالمية والقومية، تقوم على تحليل موضوعي للامور وعلى التمييز بين الحلم والواقع»، وانه تميز بـ«صلابة التمسك بالحق وعدم الانجرار الى مغامرات أو أعمال غير محسوبة»، لافتاً الى طرح الرئيس الراحل صيغة «سلام الشجعان وحرص سورية على تحقيق السلام العادل والشامل المبني على قرارات الشرعية الدولية ومرجعية مدريد القائمة على مبدأ الأرض في مقابل السلام»، والى مساعيه لتحقيق «التوازن الاستراتيجي».

من التجارب الأخرى التي تعكس صبر الأسد الأزمة الأخطر بين تركيا وسورية التي حصلت في تشرين الأول (اكتوبر) العام ١٩٩٨، ذلك ان سورية مارست منتهى ضبط النفس على رغم التهديدات والتصريحات التركية الاستفزازية لها. ولم تحرك دمشق جندياً واحداً الى حدودها الشمالية مع ان الاتراك حشدوا آلاف الجنود. وكان رد الفعل السوري الصامت لأيام عدة محيراً ومحطة لطرح تساؤلات من الاتراك، الى ان تدخل الرئيس حسني مبارك وحلت الأزمة سياسياً بتوقيع اتفاق امني في ٢٠ تشرين الأول في مدينة أضنا التركية.

وقال مسؤول سوري ان الرئيس الأسد «عالج الأزمة الأخيرة مع تركيا بمنتهى الصبر وبمنتهى الذكاء مما جنب المنطقة اندلاع حرب، وجنب سورية الدخول في مواجهة مع جار مسلم». واضاف ان «أعصاب الأسد الفولاذية فوتت الفرصة على من كان يقف وراء تركيا ويدفعها للتصعيد والحرب»، في اشارة الى اسرائيل التي وقعت اتفاقات عسكرية مع تركيا في بداية العام ١٩٩٦. ويقول محللون ومسؤولون ان «عينه» كانت دائماً على «الآخر الاسرائيلي»، ولم يكن في صدد نقله الى مكان آخر.

اما التحدي الأكبر الذي واجه الأسد داخلياً، فكان حركة «الاخوان المسلمين» التي خاضت صراعاً ضد السلطة في نهاية السبعينات وبداية الثمانينات، واسفرت المواجهة عن دخول عدد كبير منهم في السجون وهروب آخرين الى الدول التي كانت تدعمهم. وما ان «انتهت» المشكلة وارتاحت سورية بقوة الدولة حتى أصدر الرئيس الأسد في العام ١٩٩٥ عفواً رئاسياً قضى بخروج آلاف منهم من السجون وعودة آخرين الى البلاد.

اقتصادياً، بدأ عهده قبل ثلاثة عقود بلقاء مع القطاع الخاص ليتكامل مع القطاع العام. وانهى عهده بتوقيع مراسيم للتحرير الاقتصادي. لم يكن مقتنعاً بالاصلاحات السريعة، بل بالتدرجية و«التعددية» بين الخاص والعام والمشترك. وكانت أهمية كل قطاع تزداد وتتراجع بحسب المتغيرات والحاجة.

هذا ما يفسر انه كلما ضاق حال الاقتصاد السوري والصحوة الاقليمية والدولية، حصلت جرعة انفتاحية منذ أواسط السبعينات حتى منتصف الثمانينات وبداية العام ١٩٩١ وصدور قانون الاستثمار الرقم ١٠ الذي سمح للقطاع الخاص العمل بحرية. وما ان بدأ ولايته الخامسة في آذار (مارس) العام الماضي، حتى وضع برنامجاً اصلاحياً لـ«محاربة الفساد» و«تحديث الدولة» و«تطوير الاقتصاد».

وبعد مرور سنة على البرنامج وعجز حكومة الراحل محمود الزعبي، شكل حكومة جديدة وضعت «التغيير» في رأس أولوياتها، فيما هو ركز كل جهوده على «ترتيب البيت الداخلي» بإصدار مراسيم الاصلاح الاقتصادي وبعقد المؤتمر القطري التاسع لحزب «البعث» الحاكم ومحاسبة كبار المسؤولين السابقين، ذلك عندما اغلق باب السلام في آذار الماضي.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية